ماوراءك يا عصام

عبد المنعم الهاشمي

دار الإيمان
إسكندرية

obeikandl.com

محفوظة
جميع الحقوق

رقم الإيداع ٢٠٠٣/٣٢٣٤

الترقيم الدولي

977-331-971-1

دار الأعيان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٩٦

دار العلمية للنشر والتوزيع
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٩٦
E-mail:dar-aleman@hotmail.com

obeikandl.com

ما وراءَكِ يا عصامُ

عـصام هي امـرأةٌ عـربيةٌ من كـنْدة، ذات عقلٍ ولسـانٍ فصيحٍ وأدبٍ جمٍّ وبيانٍ بليغ.

كانت عصـام خاطبةً معـروفةً، يعرفهـا كلُّ ملوك وأمراء وأشراف قبائل العـرب، فهي تطوفُ الوديانَ، وتأتي مضاربَ القومِ في الخيامِ والدورِ، تطلَّع على حسبِهم ونسبِهم وبناتِهم، وتعرف أصولَهم وأنسابَهم وأحسابَهم.

ومن الملوك الذين عاصـرتهم عصام هو الحارثُ بن عـمرو ملك كندة، وكـان الحارثُ بن عـمـرو من أشراف العـربِ في الجاهليـةِ، كان مُطاعًا في قومـه لمهابتهِ وشـخصيتـهِ، قويًا في عصبيـتهِ لحزمهِ وعزمهِ وإرادتهِ وكـان من مظاهر تشريفِ العربِ في الجاهليَّة لهذا الملك المَهيب والمطاع والقوي أنَّهم كانوا يضربون له قبَّة في عكاظ، وقد مات قبل ظهور الإسلام بقليل[1].

أما بطلة هذه القصة فهي فتاة جميلة، تحوَّل الحديثُ عن جمالها في مجلس العرب ونواديهم إلى اسطورةٍ كبيرةٍ، وقد

---

(١) مات سنة ٤٥ قبل الهجرة النبوية.

سمع عن جمالها وكمالها وقوةِ عقلِها الحارث بن عمرو ملك كنده، فأرسل من يدعو له الخاطبة «عصام»، فلما جاءت أمامه أمرها بأنْ تذهبَ لترى هذه الفتاةَ الجميلةَ لتنقلَ له صورتها الحقيقيَّةَ للتأكدِ مما سمعه من حديثٍ عن جمالِها وكمالها وفراستِها وقوةِ عقلها، وفرطِ ذكائِها، **فقال لعصام:** يا عصامُ اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف.

خرجت عصام طائعةً ملبيةً لملكِ كنده الحارث بن عمرو، ومضت إلى دارِ «عوف بن محلم الشيباني» فطرقت بابهُ، فسمعتْ من يقولُ: مَنْ مِن داخل الدارِ الواسعةِ والتي تبدو عليها الرفاهية والسعة. فسمع أمها من خلف الباب تقول: من الطارق؟

فقالت عصام: عصام يا سيدتي.

ففتحت لها بابَ دارِها ورحبت بها أجملَ ترحيبٍ، وجلستُ معها في مجلس النساء في هذه الدارِ الواسعةِ الفارهةِ وجالت بنظرِها في بهو الدارَ فلم تر شيئًا تعيبه، فما أكثرَ الفرش والبسائط والستائر والحرائرَ المدلاة هنا وهناك، فأحست على الفور بأنها في دار الجمال كلِّه والسحرِ كلِّه،

فمالت على أمِّ الفتاةِ، وقالت لها: إنَّ الحارث بن عمرو ملك كنده قد سمع مثلما يسمع الرجل في مجلسهِ عن فتاة جميلة تحدث النـاس عنها وكأنهـا أسطورةٌ أو عروسٌ قـد نزلت من السماءِ لفرطِ جمالِها وحُسنِ عقلِها وذكائها.

تبسمت امـرأةُ عوف بن محلم الشيبـاني، كأي أمٍّ تفرحُ عندما تكون ابنتها لهفةَ الشبابِ ورغبةَ الملوكِ وحلمَ الأشرافِ وأصحابِ الأنسـابِ والأحسابِ، **وقالت:** سأدعوها لك الآن على الفـور، انتظري قليلاً يا عـصام، جلست عصـام تنتظر الفتـاة وقد تهيَّأتْ تمامًـا لتتـفحصَ هذا الجمـالَ الذي أصبح اسطورةً تتحدث عنه كلُّ نوادي العربِ في الجاهليَّةِ.

وأرسلت الأمُّ إلى ابنتها لتحضرَ إليها سريعًا وتتركَ كل ما يشـغلهـا في الدار، ولم تطلبُ الأمُّ من ابنتـهـا كالعـادة أن تتزيَّن، أو تبـدي زينتها أمـام عصام الخاطبـة وتلك هي عادةُ الأمهات عندما تأتيهن الخاطبات ليطلعن على بناتهنَّ ولينقلنَ الصورةَ إلى الرجالِ.

ولما جاءت الفتـاة أمام أمِّـها، قالت لهـا: أي بنية، هـذه خالتك عصـام قد أتتك لتنظر إليك، فلا تسـتري عنها شيـئًا أرادت

النظر إليه من وَجْهٍ وخَلْقٍ، وناطقيها إن استنطقتك، أي كلميها إذا كلمتك.

دخلت عصام إلى الفتاة في حجرتها، فنظرت إلى ما لم تر عينُها مِثْلَهُ قطُّ بَهْجَةً وحُسْنًا وجمالاً؛ فإذا هي أكملُ الناسِ عقلاً وأنصحهمُ لسانًا، لقدتحدثت إليها فسمعت كلامًا جمبلاً وأسلوبًا رصينًا وعباراتٍ منمقة تدل على علمٍ وفهمٍ، وحاورتْها فبرز الذكاءُ وطلعت عليها صنوفُ الفراسةِ والفطنةِ، واستنطقتها ففاضَ الشعرُ والنثرُ على لسانِها فزادته جمالاً بصوتِها المغرِّدِ تغريدَ الكروانِ في عسس الليل المنصرف وظلت عينا عصام تفحص هذا الجمالَ من أعلى الرأس إلى أخمص القدمْين وساعدتها على ذلك فطرةٌ الأنثى وقدرتها على الفحصِ والوصفِ، والنقل المفصلِ لكل صورةٍ وقعت عليها عيناها حتى إنَّها حينما خرجت من عندها كانت في دهشة لم تعرفها من قبلُ وقد خبرت جمال بناتِ العربِ جميعًا في غدوِّها ورواحها ودخولها وخروجها لدورِ وقصورِ الملوكِ والسادةِ وخيام الأشرافِ من قبائل العرب وشيوخهم.

فقالت وهي خارجة: «تَرَكَ الخداعَ مَنْ كَشَفَ القِنَاعَ» فصارت مثلاً.

ثم أقبلت إلى ملك كنده الحارث بن عمرو، فما إن دخلت عليه حتى هلَّل **قائلاً**: «ما وراءَك يا عصامُ»[1]. فأصبحت مثلاً كذلك.

فقالت: صَرَّحَ المخضُ عن الزُّبدِ ـ وهذا مثلٌ يؤخذ أي ظهر الأمرُ بوضوحٍ وتبيُّنٍ.

ثم قالت: أيها الملك: أخبرُك صِدْقًا وحقًّا.

فقال: أخبريني يا عصام.

فاستأذنت الملك وجلست أمامه مجلسًا تتخذه النساءُ عند الوصف والقصِّ فقالت تصف ابنةَ عوف بن محلم الشيباني خَلْقًا وأخلاقًا، **فقالت**: رأيتُ جبهةً كالمرآةِ الصقيلةِ، يزينها شعر حالكٌ كأذناب الخيل المضفورةِ، إن أرسلتهُ خلتهِ أو تخيلَته السلاسلَ، وإن مشَطَتهُ قلت عناقيد كرم جَلاها الوَابلُ ـ وهو المطر الشديد ـ وتشبه عصام هنا شعر الفتاةِ عندما تمشطه بعناقيد العنب التي غسلها وأظهرها بوضوح المطر الشديد.

قالت عصام: وحاجبين كأنما خُطّا بقلمٍ أوسُوِّدا بفحمٍ، قد تقوَّصا على عين الظبية الرقيقة البشرة الناصعةِ البياض ـ

---

(١) انظر: «مجموع الأمثال» (٢ - ١٩٢).

البَهرة، التي لم يرُعْها قانصٌ ـ صياد ـ ولم يذعرها ويخيفها أسدٌ ـ وبينهما أنفٌ كحدِّ السيفِ المصقولِ، لم يخنس به قِصَرٌ ـ والخنسُ هو تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة، ولم يَمْضِ بها طولٌ، حُفّتْ وَجنَتَان كالأرجوانِ ـ في بياضٍ مَحْضٍ كاللؤلؤِ والجُمانِ. شُقَّ فيه فَمٌ كالخاتم، لذيذُ المبتسَم، فيه ثنايا غُرٌّ، ذوات أُشُر، وأسنانٌ تبدو كالدرر، يتقلَّبُ فيه لسانٌ ذو فصاحةٍ وبيان، يُحرِّكُه عقلٌ وافر، وجانبٌ حاضرٌ . . . إلى أن قالت: فأمَّا بنظمٍ أو نثرٍ ـ وقبلَ أن نُكملَ زواجَ الملك ـ نتحدث عن الوصف، ولعل أشهر وصف جاء للنساءِ والرجال غير وصف عصام جاء عن أفضلِ النساء أفضلِ الرجال ـ ما روته المراجع[1] ـ فقالت:

خرجت العجفاءُ بنت علقمةٍ السعدي وثلاث نسوةٍ من قومها، وتواعدنَ روضةً يتحدثن فيها، فَوَافِينَ بها ليلاً في قَمَرٍ زَاهرٍ، وليلةٍ طلقةٍ ساكنة، وروضة مُعْشبةٍ خصبةٍ.

فلما جَلَسْنَ قُلْنَ، ما رأينا ليلةً كالليلةِ هذه، ولا كهذهِ الروضة روضة أطيب ريحًا ولا أنضر! ثم أفضنَ في الحديثِ

(١) «مجمع الأمثال» (٢: ٧٢).

فـقلن: أيُّ النساءِ أفـضلُ؟ **قـالت إحـداهُنَّ**: الخرود ـ الحـييـة الطويلة السكوتُ الودودُ الولودُ. **قـالت الأخـرى**: خيرهُنَّ ذاتُ الغَنَاء وطيبِ الثناءِ، وشدّةِ الحَياءِ.

وقـالت الثـالثـةُ: خيـرُهُنَّ السَّمـوعُ ـ التي تسمـع القول ـ النَّفوعُ، غيرُ المنوع.

وقالت الرابعةُ: خيرَهُنَّ الجامعـةُ لأهلِها، الوَادِعَةُ، الرافعةُ لا الواضعةُ.

قلت: فأيُّ الرجالِ أفضلُ؟

قـالت إحـداهُنَّ: إنَّ أبي يُكرم الجارَ، ويُعْظِمُ النَّارَ، وينحرُ العشـارَ (وهي الناقة التي مـضى لحملها عـشرةُ أشهـر) بعد الحـوارِ (ولد الناقـة) وهذا دليلٌ على كرمـه ـ ثن اسـتطردتْ قائلةً: ـ ويحمل الأمورَ الكبارَ، ويأنف من الصَغَارِ.

فقالت الـثانيةُ: إنَّ أبي عظيمُ الخطرِ، منيعُ الوزرِ (الملجأ)، عزيزُ النفرِ، يُحْمَدُ منه الوردُ والصَدرُ.

فقالت الـثالثةُ: إنَّ أبي صدوقُ اللسـانِ، مديدُ الجنانِ[1]. كثيرُ الأعوانِ يُروي السِّنانَ عندَ الطعانِ.

---

(١) الجنان: القلب.

فقالت الرابعة: إنَّ أبي كريمُ النزالِ، مرتفعُ المَقَالِ؛ كثيرُ النَّوَالِ، قليل السؤالِ، كريمُ الفعالِ.

ثم ذهبنَ وتحاكمنَ إلى امرأةٍ عاقلةٍ معهُنَّ في الحيِّ، فقلنَ لها: اسمعي ما قلنا واحكمي بيننا واعدلي؛ ثم أعدنَ عليها قولهُنَّ، **فقالت لهُنَّ:** كل واحدة منكنَ بلغت الغايةَ بأبيها واجدة محبَّةً له، على الإحسان جاهدة، لصواحبها حاسدة، ولكنْ اسمَعْن قَولي: خيرُ النساءِ المُبقيةُ على بَعْلِها، الصابَرةُ على الضرَّاءِ مخافةَ زن ترجعَ إلى أهلها؛ فهي تؤثرُ حظَّ زوجِها على حظِّ نفسها، فتلك الكريمةُ الكاملةُ، وخيرُ الرجالِ الجوادُ البطلُ، القليلُ الفشلِ، إذا سألهُ الرَّجلُ ألفاه قليلَ العِللِ، كثيرُ النَّفَلِ والعطاءِ، ثم قالت: كلُّ فتاةٍ بأبيها معجبة.

وبعد هذا الوصف نعودُ إلى عصام وزواجِ ملك كندة بابنةِ عوف بن حلم الشيبانيِّ واسمُها: «أُمُّ إياس».

ذهب ملك كندة لخطبتها، **فقال أبوها عوف:** نعم أزوِّجكما على أنْ أُسَمِّيَ بنيها، وأُزوِّجَ بناتِها.

فقال ملك كندة: أمَّا بنُونا فنسميهم بأسمائنا، وأسماء آبائنا وعمومتنا. وأما بناتِنَا فنزوجهنَّ أكفاءَهنَّ من الملوكِ، ولكنَّي

أصدقها وأدفع لها مهرًا قصرًا في كندة، وأمنحها حاجاتِ قومِها لا تُردُّ لأحدٍ منهم حاجة!

فقبل عوف الشيبانيُّ من ملكِ كندة ذلك، وزوَّجها إيَّاه.

نصيحة الأمُ عند الزواج:

جاء يوم الزفاف، وأذَّن صاحبُ الموكبِ برحيل أُم إياس بنت عوف بن محلم الشيبانيِّ إلى زوجها الحارثِ بن عوف ملك كندة وشريفِ العربِ في الجاهليَّةِ المطاعِ في قومه، القويِ في عصبيته، فجاءت الأم أُمامةُ بنت الحارث تودِّعَ ابنتَها فقالت: أيُّ بُنية، إنَّ الوصية لو تُركت لفَضْلِ أدبٍ، تُركَت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافلِ؛ ولو أنَّ امرأةً استغنت عن الزوج لِغنَى أبويْها، وشدِّة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناسِ عنه، ولكنَّ النَساءَ خُلقِن للرجالِ، ولهنَّ خُلقَ الرجالُ.

أيُّ بنيَّةُ: إنَّكِ فارقت الجوَ الذي منه خرجتِ، وخلَّفتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى ذكرٍ لم تعرِفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بِمُلكِه عليكِ رقيبًا ومَليكًا، فكوني له أمَةً يكُنْ لَكِ عبدًا وشيكًا ـ أي سريعا ـ.

يا بُنيَّة احملي عنِّي عَشْرَ خصالٍ تكنْ لكِ ذُخرًا وذكرًا: الصُّحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عَيْنِه، والتفقد لموضع أنفه؛ فلا تقع عينهُ منك على قبيحٍ، ولا يشمَّ منكِ إلاَّ أطيبَ ريحٍ؛ والكُحل أحسنُ الحُسْنِ، والماء أطيبُ الطيب المفقود، والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عنه عند منامِه، فإنَّ حرارة الجوعِ مَلْتَهبة، وتنغيصُ النومِ مَغْضَبه، والاحتفاظ ببّيته وماله، والإبقاء على نفسه وحشمه وعياله، فإنَّ الاحتفاظَ بالمالِ حسنُ التقدير، والإبقاء على العيال والحشم جميل حَسنُ التدبير؛ ولا تُفْشي له سرًا، ولا تَعْصي له أمرًا؛ فإنَّكِ إن أفشيتِ سرَّه لم تأمني غَدْرَهُ، وإن عَصَيْتِ أمرَهُ أَوغَرْتِ صدْرَهُ؛ ثم اتقي مع ذلك الفرحَ إنْ كان تَرحًا، والاكتئابِ عندَهُ إنْ كان فَرِحًا، فإنَّ الخصلةَ الأُولى من التقصير، والثانية من التكديرِ، وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظامًا يكن أشدَّ ما يكون لك إكرامًا، وأشدَّ ما تكونين له موافقةً يكن أطولَ ما تكونين له مرافقةً.

واعلمي أنَّكِ لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاهُ على رضاكِ، وهواهُ على هواكِ فيما أحببتِ وكرهتِ: والله يُحيرُ لك!

زُفت الفتاةُ إلى زوجها ملك كندة عمرو بن الحارث وعاشت تذكر كلمات أُمِّها أُمَامَةَ بنت الحارث فكانت تضعها دستورًا لها في كل ما يخص علاقتها بزوجها، ولقد كانت نصيحةُ الأمُ العربيَّة شاملةً بحيث أنها كادت تُغطِّي كلَّ شيءٍ يهم ابنتها، وتشعر أنها قدَّمت لابنتِها خلاصةَ تجربَتِها مع الزوجِ أو خلاصة تجارب الأزواج مع نسائِهم.

وانجبت «أم اياس» لزوجها ملكِ كندةَ عمرو بن الحارث طفلاً جميلاً هو الحارثُ بن عمرو والذي أصبح فيما بعد جداً لشاعر العرب المشهور بشعره العربي الأصيل وهو الشاعر «أمرؤ القيس».

وقد كَثُر الحديثُ في المصادرِ عن صفة الزواج، فقد تزوَّج رجلٌ يقال له لقيط بفتاة عربيَّة، فلما أرسَلها أبوها إلى زوجها فوَدَّعَته.

قال الأب لإبنته ناصحًا: يا بُنَيَّةُ كوني له أَمَةً يكن لك عبدًا، وليكن أطيبَ طِيبَكِ الماءُ ثم لا أذكرتِ، ولا أيسرت (أي لا تلد له أبناء وأهلها كانوا أعداءه) فإنَّك تلدين الأعداء، وتقربين البعداء، إنَّ زوجَك فارس من فرسان

مُـضر، وإنَّه يوشك أن يُقـتل أو يموت، فـإذا كان ذلك فـلا تلطمي عليه وجهًا، ولا تحلقي شعراً.

قال الأب لابنتـه ذلك لأنَّ لقيطًا زوجَـها كـان عدوًا لأهلهـا وقـومهـا، ولكنَّ الأبَ زوَّج ابنتـه لهـذا الرجل لفروسيته ورجولته.

ومـرت الأيام وقتل زوجُـها لقـيط، فلما قُـتل زوجهـا حُمِلَتْ إلى أهلـها، ثم مالت إلى أهل زوجـها، **وقالت:** نعم الأحمـاء يا بني دارم، وأنا أوصيكـم بالغرائب خيـرًا فلم أر مثل لقيط.

ثم عادت إلى قومها، فـتزوَّجها ابنُ عمٍّ لها، فكانت لا تسلو عن ذكر لقيطٍ.

فقال لها زوجها: أي يوم رأيت فيه زوجك لـقيطًا أحسن في عينيك؟!

قالت: خرجَ يومًا يصطاد، فطارد البقـرَ فصرع منها، ثم أتاني مُخَضَّبًا بالدماءِ، فضـمَّني ضمَّةً، ولثمني لثمة، فليتني مِتُّ ثَمَّةَ (أي ليتني مُتّ بعده من شدَّة محبتها له، لشاهمته ورجولته).

فخرج زوجها ففعل مِثل ذلك ثـم أتاها، فضمها ولثمها (قبَّلها)، **ثم قال لها**: من أحسَنُ، أنا أم لقيط عندك؟

فقـالت كلمة اتخـذها العرب مثـلاً فيمـا بعد، لبـلاغة قولهـا، وحسن اسـتدلالهـا ـ لقد قـالت لابن عمـها الذي تزوَّجها بعد لقيط ردًّا على سؤاله: «**مرعى ولا كالسعدان**».

والسـعـدان: نبتٌ له شـوكٌ، وهو من أفـضل مـا ترعـاه الإبل، وبه يضـرب المثلُ فيـقـال: مرعى ولا كـالسعـدان، ومقصودُها أنَّ زوجَها لقيطٍ لا يفضلُهُ آخر.

وبذلك اعتزت بصفاتِ الرجل الذي تزوَّجها وأن كان غريبًـا وعدوًا وفضلته على زوجـها الثاني وإن كان قـريبًا وابن عمٍّ.

ومن قصـتنا هذه ـ ما وراءكَ يا عـصام، وما تـبعناه من أخبـار العرب عن النسـاءِ نتبـيَّن أنَّ الخبـرةَ والتجـربةَ أمر لا يُستهان به، فإذا سـمعت الفتاةُ نصيحةِ أُمِّهـا فإنَّها تُوفِّرُ على نفـسهـا متـاعبَ التـجريبِ، وتتـجنَّـبُ الخطأ وتستكثـرُ من

الصوابِ، فتقبلُ على حياتِها بفهمٍ صحيحٍ، وبنفسٍ راضيةٍ واثقةٍ، عارفةً سلفًا علاجَ كل موقفٍ، فهي هادئةٌ ساكنةٌ عند نومِ زوجِها، وهي فرحةٌ تشاركهُ الفرحَ، وتعرفُ مواقيتَ طعامِهِ وشرابِهِ ولا تؤذيه في ذلك وصدق اللهُ العظيم إذ يقول: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (سورة فاطر: ١٤).

obeikandl.com